ISSN: 1812-0512 (Print) 2790-346X (online)

Wasit Journal For Human Sciences

Available online at: https://wjfh.uowasit.edu.iq

Shatha Galeb Hassan

Ministry of Education
Wasit Education Directorate

*** Corresponding Author**
Email:
Shatha5t7t@gmail.com

Keywords:
state in Egypt, the impact of the economic factor, wars and conflicts, the spread of high prices and poverty

---

Article history:
Received: 8 June., 2024
Accepted: 10 July, 2024
Available online: 30 Aug. 2024

CC BY

Reasons of the High Prices in Egypt in the Mamluk Era and its Implications 648-784 AH. / 1250-1282 AC

A B S T R A C T

The relationship between the Ayyubid rulers and the Mamluks, initially military slaves, evolved as the Mamluks rose to power, eventually establishing a state in Egypt. This marked a significant period in Egyptian history, bringing stability and prosperity, but also challenges such as inflation. The Mamluk era saw severe inflation caused by a combination of wars, political disruptions, rising taxes, and military expenses. Additionally, water scarcity and drought worsened the food supply, further increasing prices. Inflation had a profound impact on Egyptian society, exacerbating poverty and economic pressure on the lower classes. The country's political and economic instability, coupled with increased military costs, drove up the cost of living, leading to widespread poverty and social tensions. The poor were particularly affected, as their living conditions deteriorated amidst rising prices and high taxes. This complex interplay of economic, social, and environmental factors worsened the overall economic situation, creating discontent among the population. Inflation during the Mamluk era reflected the challenging conditions faced by society, as wars, conflicts, lack of water resources, and increased taxation contributed to widespread hardship. Ultimately, inflation became a defining issue, significantly affecting the lives of the Egyptian population during this period.

DOI: https://doi.org/10.31185/wjfh.Vol20.Iss3.627

أسباب الغلاء في مصر في العصر المملوكي وتداعياته ٦٤٨-٧٨٤هـ/١٢٥٠-١٢٨٢م

م.م شذى غالب حسن
وزارة التربية – مديرية تربية واسط

الملخص بالعربية:

في البداية تأسست دولة المماليك في مصر في العصور الوسطى بعدما نجحت هذه الفئة العسكرية في الاستيلاء على السلطة.

ظهور الطبقة المملوكية:

– تطورت العلاقة بين الحكام الأيوبيين والمماليك، الذين كانوا عبارة عن عبيد عسكريين تم شراؤهم أو عتقهم.

– بدأت الطبقة المملوكية في الظهور كقوة عسكرية قوية.

تأسيس دولة المماليك في مصر كانت محطة مهمة في التاريخ المصري، فقد قادت هذه الدولة إلى مدد من الاستقرار والازدهار، وتركت بصمة في تطور المجتمع والثقافة.

كانت قضية الغلاء في العصر المملوكي في مصر تشكل تحديًا كبيرًا للسكان.، وكانت الأسباب متنوعة وتشمل الحروب والاضطرابات السياسية التي أثرت في الاقتصاد. كما تسببت الزيادات في الضرائب والتكاليف العسكرية في تفاقم المشكلة. كانت هناك أيضًا قلة في موارد المياه والجفاف؛ مما أدى إلى ارتفاع أسعار المواد الغذائية. كان الغلاء يؤثر بشكل كبير على حياة الناس، ويزيد من الفقر والضغوط الاقتصادية على الطبقات الأدنى من المجتمع.

وكانت قضية الغلاء تشكل جزءًا مهما من تحديات المجتمع. شهدت هذه المدة اضطرابات سياسية واقتصادية، إذ تأثرت البلاد بالحروب والصراعات الداخلية. زادت الضرائب والتكاليف العسكرية؛ مما أدى إلى ارتفاع تكلفة المعيشة.

في هذا السياق، زادت حدة الفقر وتفاقمت الظروف المعيشية للطبقات الفقيرة. كما أدى الغلاء إلى تدهور الوضع الاقتصادي العام، وزادت التوترات الاجتماعية. يمكن القول: إن مشكلة الغلاء كانت

تعكس الظروف الصعبة التي مر بها المجتمع المصري في تلك الحقبة وأثرت بشكل كبير على حياة الناس.

تفاقمت مشكلة الغلاء بفعل الزيادات الضريبية والنفقات العسكرية؛ مما أدى إلى انعكاس سلبي على الحياة الاقتصادية للسكان. ارتفعت معدلات الفقر بشكل كبير، خاصة بين الفئات الأكثر ضعفًا اقتصاديًا. كانت تلك الظروف تتسبب في توترات اجتماعية واستياء شديد بين الناس.

بالمجمل، كان الغلاء في العصر المملوكي يعكس تداخلًا معقدًا من العوامل الاقتصادية والاجتماعية والبيئية؛ مما أثر بشكل جذري على حياة السكان، وشكّل تحديًا جسيمًا للمجتمع في ذلك الوقت.

إن مشكلات الغلاء في مصر خلال العصر المملوكي تتنوع وتتسم بتأثير واسع على المجتمع والاقتصاد. ومن أبرز هذه المشكلات: الحروب والصراعات، وقلة الموارد المائية والجفاف، وزيادة الضرائب والنفقات العسكرية، وتراكم الديون، وتفاقم الفقر.

الكلمات المفتاحية:دولة المماليك في مصر، أثر العامل الاقتصادي ، الحروب والصراعات ، تفشي الغلاء والفقر.

المقدمة:

في خضم تاريخ مصر الغني والمعقد، تبرز مدة العصور الوسطى كفصل مهم يعكس التطورات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. ومن بين هذه الفترات، تظهر دولة المماليك كحضارة رائدة أسهمت بشكل فعّال في تحديد وجهة مصر وتطورها. وتعد مدة العصر المملوكي (القرن الثالث عشر حتى منتصف القرن السادس عشر) مدة فارقة في تاريخ البلاد، وسنستعرض في هذا البحث بعمق جوانب هذه الحقبة المميزة.

١. السياق التاريخي وظهور الطبقة المملوكية:

تعد دولة المماليك نتيجة تطورات تاريخية معقدة، فقد ظهرت هذه الفئة العسكرية بعد المدة الأيوبية. بدأ السلطان صلاح الدين الأيوبي بفتح مصر في القرن الثاني عشر، ومع نقص الحكم الأيوبي، ظهر المماليك الذين كانوا في البداية عبيدًا عسكريين تم شراؤهم، لكنهم تحولوا إلى قادة أقوياء ومؤثرين في الحياة السياسية.

٢. تطورات الحكم المملوكي:

بعد مدة تحول، أصبح المماليك همة السلطة في مصر. في العام ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م ، قاد السلطان قطز انقلابًا ناجحًا ضد الحكام الأيوبيين، وأسس بذلك الدولة المملوكية في مصر. انقسم المماليك إلى ممالك البر والبحر، وشهدت فترات من الاستقرار والازدهار الاقتصادي والثقافي.

٣. النظام الاقتصادي والثقافي:

تميزت حكومة المماليك بالنظام العسكري وتركزها على القوة العسكرية على الصعيدين الاقتصادي والثقافي، شهدت المملكة تطورات مهمة، ونمت الحرف والتجارة، وازدهرت العلوم والأدب، وبنيت مدارس وجوامع رائعة، وأسهمت المملوكة في تطوير المعمار والفنون.

٤. التحديات والتراث:

على الرغم من الفترات الزاهية، واجهت دولة المماليك التحديات أيضًا.، وشهدت فترات من الصراعات والأزمات الداخلية، وقد تجلى ذلك بوضوح في قضية الغلاء وارتفاع تكلفة المعيشة، فقد أثرت الحروب والصراعات والزيادات الضريبية على حياة السكان.

٥. التأثير على تاريخ مصر:

يظل عصر المماليك في مصر محطة مهمة في تاريخ البلاد، إذ لا تقتصر إسهاماتهم على السياسة والاقتصاد فحسب، بل تمتد إلى التأثير الثقافي والفني. وقد تركوا وراءهم إرثًا معماريًا رائعًا ومؤلفات أدبية وفنية تعكس عظمة هذه الحقبة.

في الختام، يتضح أن عصر المماليك في مصر لم يكن مجرد مدة زمنية في تاريخ البلاد، بل كانت حقبة ملهمة شكلت جزءًا حيويًا من مسيرة مصر.

العصر المملوكي في مصر يمثل مدة تاريخية استمرت من العام ١٢٥٠م إلى العام ١٥١٧م. بدأ هذا العصر بعد الثورة التي قادها القائد المملوكي قطز ضد الحكام الأيوبيين. وخلال هذه المدة حكم سلاطين المماليك مصر، وتميز العصر بتأسيس نظام حكم عسكري كان الحكم فيه يتنقل بين القادة العسكريين. كما شهد العصر المملوكي تطورًا اقتصاديًا وثقافيًا، وكان للطبقة المملوكية دور بارز في الحياة الاجتماعية والسياسية. انتهى العصر المملوكي بعد الغزو العثماني لمصر عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م ، حين أُقيمت الإمبراطورية العثمانية. (ألن د.ت :٢/ ٤٣٤)

وننوه إلى أن مدة العصر المملوكي في تاريخ مصر كانت ذات أهمية كبيرة، وذلك لعدة أسباب:

١. تأسيس نظام حكم جديد: شكلت ثورة المماليك وتأسيسهم للحكم في مصر نقطة تحول في التاريخ المصري، فقد شهدت البلاد نظام حكم عسكري يتميز بالاستقرار والقوة العسكرية.

٢. الازدهار الاقتصادي والثقافي: شهدت مدة المماليك ازدهارًا اقتصاديًا وثقافيًا، فقد شُجع على الفنون والعلوم وبناء المشاريع البنية التحتية؛ مما أسهم في تقدم المجتمع وتطويره.

٣. التأثير على التجارة: كانت مصر تشكل مركزًا تجاريًا مهمًا في هذه المدة، فقد استمر التجارة في البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط؛ مما أثر إيجابيًا على اقتصاد البلاد.

٤. تطوير البنية التحتية: شهدت المدن المصرية تطويرًا في البنية التحتية، بما في ذلك بناء المدارس والمستشفيات والجسور والسدود؛ مما أسهم في تحسين ظروف الحياة.

٥. التسامح الديني والثقافي: كان المماليك يتسمون بالتسامح الديني والثقافي، فقد استمرت التعايش بين المسلمين والمسيحيين ووُجِدت الحضارة والابتكار في مختلف الميادين.

على الرغم من التحديات والصراعات، فإن العصر المملوكي أسهم في تشكيل الهوية المصرية وتقديم إسهامات ثقافية واقتصادية مهمة.

المبحث الأول

تأسيس دولة المماليك والأحداث الرئيسة

أُسست دولة المماليك في مصر في القرن الثالث عشر، وقد تمثلت هذه المدة بمجموعة من الأحداث الرئيسة:

١. المدة الأيوبية (٥٦٥-٦٤٨هـ /١١٦٩-١٢٥٠م):

- بدأت السلطة بيد السلالة الأيوبية بعد غزو صلاح الدين الأيوبي لمصر في عام ٥٦٥هـ/ ١١٦٩م.
- أسس صلاح الدين نظامًا إداريًا مركزيًا وركز على الجوانب العسكرية.

٢. ظهور الطبقة المملوكية:

- تطورت العلاقة بين الحكام الأيوبيين والمماليك، الذين كانوا عبيدًا عسكريين تم شراؤهم أو إعتاقهم.
- بدأت الطبقة المملوكية في الظهور كقوة عسكرية قوية.

٣. قيادة المماليك لمصر ٥٦٥هـ/ ١١٦٩م:

- في العام ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م ، قاد المماليك الدمشقيون انتفاضة ناجحة ضد الحكام الأيوبيين في مصر بقيادة القائد قطز.
- انقسم المماليك إلى مملكتين، مملكة البحر ومملكة البر، وتأسست السلالة المملوكية في مصر.

٤. نظام حكم المماليك:

- اتسمت حكومة المماليك بالنظام العسكري، إذ كانت السلطة تنتقل بين القادة العسكريين بشكل دائم.
- شهدت المدة حقبة من الاستقرار والازدهار الاقتصادي والثقافي، خاصة في النصف الثاني للقرن ١٣ وبداية القرن ١٤.

تأسيس دولة المماليك في مصر كان له تأثير كبير على مسار تاريخ المنطقة، فقد شكلت حقبة استقرار وتطور اقتصادي وثقافي.

وتعد المدة الأيوبية هي المدة التي امتدت من نهاية القرن ١٢ إلى منتصف القرن ١٣، وهي مدة حكم السلالة الأيوبية التي أسسها صلاح الدين الأيوبي، وهو القائد العسكري والحاكم الذي ترك بصمة كبيرة في تاريخ الشرق الأوسط. (عمارة ٢٠٢٣ : ١٧٦)

دور صلاح الدين الأيوبي:

١. استعادة القدس: صلاح الدين الأيوبي بُنيت شهرته بفضل جهوده في استعادة القدس من يد الصليبيين في عام٥٨٣هـ/ ١١٨٧م خلال معركة حطين. هذا الإنجاز أظهر قدرته العسكرية والدفاعية.

٢. توحيد المسلمين: كانت جهود صلاح الدين تسعى إلى توحيد الدول الإسلامية لمواجهة التحديات الصليبية. قاد حملات عسكرية ناجحة لتوحيد المنطقة تحت حكم إسلامي.

٣. تطوير البنية الإدارية: قام صلاح الدين بتطوير البنية الإدارية في المناطق التي سيطر عليها، فقد أقام نظامًا إداريًا فعالًا يهدف إلى تعزيز الاستقرار وتحسين حياة الناس.

٤. تعزيز العدالة والتسامح: كان لصلاح الدين اهتمام كبير بتعزيز العدالة والتسامح بين مختلف الطوائف الدينية، فقد أظهر احترامًا للديانات الأخرى وحمى حقوق الأقليات.

٥. إرساء الأمن والاستقرار: نجح صلاح الدين في إرساء الأمن والاستقرار في المناطق التي حكمها؛ مما أسهم في تحفيز النمو الاقتصادي وتحسين ظروف الحياة.

تاريخ صلاح الدين الأيوبي والمدة الأيوبية يعدان بمدة مهمة في تاريخ المنطقة، إذ تحققت العديد من الإنجازات العسكرية والسياسية والاجتماعية تحت قيادته.

ظهرت الطبقة المملوكية في مصر خلال العصور الوسطى، وكان لها تطورها الخاص في السياق المصري. وإليك نظرة على ظهور وتطور هذه الطبقة:

١. المدة الأيوبية (القرن ١٢ – النصف الأول للقرن ١٣):

– بدأت علاقة الحكام الأيوبيين بالمماليك وهم عبيد عسكريون تتطور خلال حكم السلالة الأيوبية.

– كانوا عبيدًا يتم شراؤهم أو إعتاقهم، وكانوا يشغلون مواقع في الجيش والإدارة.

٢. ظهور القادة المملوكيين:

– مع مرور الوقت، بدأت العلاقة بين الحكومة والمماليك تتغير، حيث أصبحت هذه الطبقة العسكرية تلعب دورًا أكبر في السلطة.

– ظهرت فئة من المماليك كقادة عسكريين بارعين وأصبحوا مهمين في الأحداث السياسية.

٣. القيادة المملوكية لمصر (النصف الثاني للقرن ١٣):

– في عام ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م ، قاد المماليك الدمشقيون انتفاضة ناجحة ضد الحكام الأيوبيين في مصر بقيادة القائد قطز.

– تم تقسيم المماليك إلى مملكتين، مملكة البحر ومملكة البر، وتأسيس السلالة المملوكية في مصر.

٤. نظام حكم المماليك:

– اتسمت حكومة المماليك بالنظام العسكري، إذ كانت السلطة تنتقل بين القادة العسكريين بشكل دائم. (عمارة ٢٠٢٣ :١٧٧)

٥. تطور الطبقة المملوكية:

– تحولت الطبقة المملوكية من مجرد عبيد إلى قادة عسكريين مستقلين بفضل نجاحاتهم في الميدان العسكري.

– تركزت السلطة والثروة في يد هذه الطبقة، وتطورت مع مرور الوقت لتشمل العديد من الجوانب الاقتصادية والاجتماعية.

ظهور الطبقة المملوكية في مصر له تأثير كبير على الهيكل الاجتماعي والسياسي، فقد أصبح لديهم دور مهم في تحديد مسار التاريخ المصري خلال العصر المملوكي.

لم تكن دولة المماليك دولة صغيرة في التاريخ الاسلامي، إذ أصبحت إمبراطورية عظمية في تاريخ الحضارة الإسلامية والعالم، وكان هذا خلافا لكثير من الدول الصغرى التي قد ظهرت واختفت في فترات لاحقة خلال الخلافة العباسية، وقد أصبحت دولة المماليك هي القيادة الإسلامية الكبرى البديلة التي ظهرت على مسرح الأحداث بعد سقوط الخلافة الإسلامية في بغداد، وبالرغم من قيامها بإحياء الخلافة العباسية من جديد في القاهرة، فقد ظل الخليفة منصباً شكلياً بينما تركزت السلطة الفعلية بيد السلطان المملوكي، وهذا مماثل لحالة الدولة الأيوبية التي كانت هي التي تحكم بشكل فعلي بالرغم من وجود الخليفة العباسي اسمياً في بغداد، وقد استمر حكم المماليك من سنة ٦٤٨هـ /١٢٥٠م، حتَّى سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م.

أُصول المماليك ومراحل دولتهم:

يعد عصر دولة المماليك مدة غامضة ومتشابكة، ومن المعروف أن جميع المصادر الإسلامية والعالمية قد علقت كثيراً على التناقض بين كون أمرائها مماليك وسلاطين في آن واحد، لكن الراجح أنه تم إعتاقهم بسبب إصرار الشيخ عز الدين ابن عبد السلام على ذلك، ولكن بقي اسم المماليك ملتصقاً بهم، وقد كان الخلفاء العباسيون هم أول من بدأ بجلبهم للجيش والمناصب من مناطق

الترك والشركس والصقالبة وبلاد ما وراء النهر، وتبعهم في ذلك الفاطميون والأيوبيون، إلى درجة أن الشعوب في بلاد المصدر أصبحت تبيع أولادها عمداً إلى بلاد المسلمين بسبب ما اشتهر بأن لهم مستقبلا مشرقا من المناصب والثراء.(عبد الله د.ت:٤٦)

وقد كان للمماليك نظام تربوي وعسكري خاص بهم، وتتم تنشئتهم على الإسلام وأخلاق الفرسان؛ مما أدى تهذيب الكثير منهم، وإلى التقليل من قسوة وصراعات بعضهم الآخر، كما جعل ذلك من بعضهم حكاماً متميزين بالعدل وحمل راية الجهاد في سبيل الله، والحرص على نجدة المسلمين، فضلا عن رعاية العلماء والمخترعين ومختلف مظاهر الحضارة العمرانية.

ولتوضيح الغموض حول دولة المماليك، يمكن تقسيمها عدة مراحل:

– مماليك ما قبل الدولة: وهي مرحلة وجود المماليك في المناصب وقيادات الجيوش، وفيها ازداد نفوذهم عبر قرون من الزمن منذ بواكير عصر العباسيين إلى أن جاء وقت حرج سقطت فيه جميع دول المسلمين الكبرى، فلم يتوفر بديل عن المماليك، وقد أثبتوا جدارتهم في صد الغزو المغولي في معركة عين جالوت، فتلقفت الأمة الإسلامية تشكل دولتهم بالقبول.

– مرحلة دولة مماليك البحرية: وهي مرحلة تأسيس الدولة المملوكية الفعلي على يد الظاهر بيبرس بعد تأسيسها على عجل من قبل الملك قطز، وتشتمل هذه المرحلة أيضاً على حكم العائلة المملوكية القلاوونيَّة بالرغم من قيامها على مبدأ انتقال الحكم للأمير المملوكي الأقوى.

– مرحلة دولة مماليك البرجية: وهي فئة أخرى من المماليك حكمت بعد سقوط حكم عائلة قلاوون، وتميزت أيضاً برفض توريث الحكم على الرغم من وجود مدة حكم سلالة آل برقوق القصيرة، ثم انهارت الدولة المملوكية تماماً بعد حوالي قرن على يد العثمانيين.

أوجه التشابه مع الدول الأخرى

تتشابه دولة المماليك مع الدول الإسلامية الأخرى في العديد من الأمور وخاصة الدولة الأيوبية، كما تختلف طبيعة نظام الحكم فيها عن الدول الإسلامية الأخرى، ومن أهم أوجه التشابه والاختلاف ما يأتي:

– تتشابه ظروف قيامها مع ظروف قيام الدولة الأيوبية التي قامت في ظروف صعبة بعد الغزو الصليبي للشام، حيث كانت شرارة قيام دولة المماليك أيضاً هي غزو المغول لبغداد والشام وتطلعهم لغزو مصر؛ مما أدى إلى انهيار الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك بدلاً منها.

– تتشابه دولة المماليك مع الدولة الأيوبية في كثرة الفتوحات وتحرير مساحات شاسعة من المناطق التي احتلها الصليبيون والمغول، كما أنها اتسعت لتشمل أكثر الأقاليم العربية التي حكمتها الدولة

الأيوبية، إذ استطاعت توسيع أراضيها عبر القضاء على الصليبيين تماماً. (عبد الرحمن ٢٠٢٣ :٣٦)

– تتشابه في كثرة الصراعات بين سلاطينها مع الدولة الأيوبية وما سبقها من دول صغيرة، وأيضاً بوجود التحالفات العابرة مع الدول المجاورة وأحياناً مع الصليبيين والمغول لأغراض الهدنة، إلا أنها قليلاً ما قامت بتحالفات من باب الخيانة مثل الدويلات التي سبقت الدولة الأيوبية.

– بالرغم من كثرة الصراعات والقتال الداخلي في دولة المماليك، إلا أنها بقيت صراعات داخلية بين أمراء المماليك في الغالب، ولم تؤدِ إلى ضرورة إعادة توحيد الدولة المملوكية من جديد عبر حروب أهلية من حين لآخر كما كان يحدث في الدولة الأيوبية، إذ كانت الدولة الأيوبية تنقسم في كل مرة بعد وفاة السلطان وتحتاج لإعادة التوحيد من جديد؛ مما أدى أحياناً إلى وجود بعض التحالفات المؤقتة التي قد تشوبها شبهة الخيانة مع الصليبيين مع قبل بعض أبناء وأحفاد صلاح الدين.

– تميزت دولة المماليك برفض مبدأ توريث الحكم، وبأن يكون الحكم للأمير المملوكي الأقوى، إلا أنه بالرغم من ذلك استطاعت بعض العائلات مثل بيت قلاوون البقاء في الحكم لجيلين أو أكثر. بينما كان مبدأ انتقال الحكم السائد في الخلافتين الأموية والعباسية هو التوريث بشكل رئيس، وهذا المبدأ قد استمر في الدولة الأيوبية إلا أنه تعرض أكثر من مرة للخضوع لمبدأ الانتقال إلى الحاكم الأقوى، مما مهّد لاستقرار هذا الشكل من انتقال الحكم في دولة المماليك.

– تميزت دولة المماليك بسبب انحصار صراعات انتقال الحكم بين الأمراء فقط بوجود أوقات طويلة من الاستقرار في ما بين فترات الصراع، فقد أمكن للحضارة الإسلامية نوعاً ما أن تنهض من جديد، وقد كتب ابن خلدون وغيره الكثيرون من المؤرخين والرحالة عن رسوخ وعظمة الحضارة الإسلامية في العصر المملوكي، بالرغم من أنها أيضاً باعترافهم كانت بداية عصر الانحطاط.

– استطاعت دولة المماليك أن تصل لمستوى دولة الخلافة الإسلامية العامة نتيجة نجاحها في مواصلة تحرير بلاد المسلمين من المغول والصليبيين حتى التحرير الكامل، كما أنها فتحت بلاد النوبة وتمكنت من فرض هيبتها على مستوى عالمي، فضلا عن أن الدولة العثمانية لم تتحول من سلطنة عادية إلى خلافة إسلامية كبيرة إلا بعد إسقاطها لدولة المماليك. (عبد الرحمن ٢٠٢٣ : ٣٥)

تأسيس دولة المماليك البحرية

بدأ أمر دولة المماليك نتيجة توسع الدولة الأيوبية في استجلابهم لقيادة الجيوش، ولكن سبب قيام دولة المماليك في هذا الوقت بالذات، بالرغم من نفوذهم منذ عصور طويلة في عدة دول إسلامية سابقة، هو نتيجة انحلال وتفكك الدولة الأيوبية تحت ضغط الغزو المغولي الذي قضى أيضاً على

الخلافة العباسية في بغداد سنة ٦٥٦ هـ /١٢٥٨م، وذلك بالتزامن مع تواصل الحملات الصليبية التي كان آخرها الحملة الصليبية الخامسة على مصر التي انتهت بالفشل بفضل قيادة المماليك العسكرية في موقعة المنصورة. كل ذلك جعل الظروف اضطرارية للغاية بحيث سمحت حتى بتولي امرأة مملوكية للحكم وهي شجرة الدر سنة ٦٤٨ هـ /١٢٥٠م، وذلك بحكم كونها أرملة الملك الصالح أيوب، وهذا الانتقال في السلطة يشابه الانتقال الذي حصل من الدولة الزنكية إلى الأيوبية بوراثة صلاح الدين الأيوبي لخاله نور الدين زنكي، وهي ناتجة عن قرابة غير مباشرة.

ثم كانت البداية الفعلية لدولة المماليك بتولي المظفر قطز للحكم سنة ٦٥٧ هـ /١٢٥٩م، وتأسيس جيش ودولة جديدة بهدف مواجهة الغزو المغولي في معركة عين جالوت، وربما لم يدر في خلده أنه يؤسس لدولة ستبقى مستمرة حيث كان قطز زاهداً بالحكم، إلا أن ما فعله في مصر من تنظيم للجيش والإدارة كان حجر أساس لدولة المماليك التي استمرت لأكثر من قرنين ونصف من الزمن، إذ تمكن الظاهر بيبرس من بعده من استكمال تأسيس كامل أركان هذه الدولة على مدى عقدين من الزمن، بحيث ترسخ القبول الشعبي والرسمي لدولة يحكمها المماليك، كما أنه قد وطد دعائم هذه الدولة الأخرى من جميع النواحي بما في ذلك قيامه بضم مكة والحجاز وإرسال الكسوة للكعبة ثم إنزال هزيمة قاسية ثانيةً بالمغول في الأناضول في معركة البستان، بالإضافة أيضاً لإحياء الخلافة العباسية في القاهرة؛ مما عزز من شرعية هذه الدولة، وتسمى هذه مدة المماليك البحرية، وتمتد حتى سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م.

السُلالة القلاوونيَّة

وبدأت بعد انتهاء حكم الظاهر بيبرس الذي حاول نقل السلطة إلى ابنه الملك السعيد، لكنه لم يتمكن من الاحتفاظ بها لصغر سنه، ثم اتفق أمراء المماليك على تولية سيف الدين قلاوون سنة ٦٧٨هـ /١٢٧٩م، وقد كان سلطاناً مهما من المماليك، فواصل الجهاد ضد المغول والصليبيين بين حرب وهدنة، وتمكن من القضاء على عدد من الثورات والمؤامرات، وكان طبعه وسط بين الرحمة والعفو المتآمرين أحياناً وبين ممارسة الشدة والقتل بحقهم. وقد تمكن من تحرير المزيد من الأراضي العربية من الصليبيين، ثم كان تحرير عكا آخر معقل للصليبيين في مدة السلطان خليل الذي تلاه لمدة وجيزة ١٢٩٠م – ١٢٩٣م، إذ قتله المماليك لسوء أخلاقه، واستمرت الصراعات بينهم على الحكم لخمس سنوات.

ثم استلم الحكم محمد الناصر ابن قلاوون لثلاث مرات، وكان قد تم عزله مرتين لصغر سنه وبسبب استمرار الصراعات، ثم تمكن أخيراً بعد بلوغه سن الرشد من العودة للسطلة بجدارة وبرغبة شعبية كبيرة، إذ بقي في الحكم لأكثر من ثلاثين سنة من ٧٠٩ هـ/ ١٣٠٩ وحتى وفاته سنة ٧٤١

هـ /١٣٤١م، وتميز عهده بالاستقرار والازدهار عقب انتهاء الحروب، ولحاجة الدولة والشعب للاستقرار السياسي، وقد كانت الدولة وقتذاك في أقصى اتساعها، ولم توجد في عهده سوى القليل من بقايا الحروب مع فلول بسيطة من فرسان الهيكل الصليبيين، كما عقد المهادنات مع دولة المغول التي كانت في طور الضعف، كما أنه قد أكثر من عقد العلاقات الدبلوماسية مع الدول الأوروبية للحيلولة دون عودة أي حملات صليبية من جديد. (طه ٢٠١٩: ٣٧٨)

أما على الصعيد الداخلي فقد كان هناك الكثير مما ينتظر العمل، فتم بناء العديد من المدارس والمساجد والأسواق، كما اهتم برعاية ودعم العلم والعلماء، وبعد وفاته لم يتمكن أولاده وأحفاده من ملء الفراغ لوحدهم، فقد كانوا سلاطين شكليين بينما كانت السلطة الحقيقية بيد كبار الأمراء المماليك، وقد امتدت هذه السلالة لحوالي أربعين سنة، وبقيت الدولة قوية بفعل قوة الدفع الأولى بالرغم من ضعف معظم أبناء قلاوون، وهذا ما تحدث عنه ابن خلدون في نظرية أجيال الدولة، وقد انتهت هذه السلالة بفعل ظهور الطاعون الأسود والغارة الوحشية التي شنها ملك قبرص على الإسكندرية سنة ٧٦٧ هـ/ ١٣٦٥م ، ثم قام الأمير سيف الدين برقوق بخلع آخر سلطان من عائلة قلاوون سنة ٧٨٤ هـ/ ١٣٨٢ م وأنهى مدة دولة المماليك البحرية.

مدة المماليك البُرجيَّة

وقد نتجت عن كثرة استخدام السلاطين المماليك للعنصر الشركسي كمماليك لهم، أي إن هذه الدولة أو المرحلة هي وليدة سابقتها للأسباب نفسها التي قامت عليها دولة المماليك الأولى، كما عاد أيضاً المغول للسيطرة على الشام، ولكن هذه المرة كمسلمين بغاة تحت رئاسة الطاغية تيمورلنك، وكان الأمير بركة منافساً لبرقوق ولكن تمكن برقوق التغلب عليه، وبدأ بمحاولة توطيد أركان الدولة، ثم واجه العديد من المشاكل الداخلية مع المماليك الأتراك حيث تم عزله ثم إعادته للحكم، فضلا عن ثورات عديدة أخرى أتت بابنه من بعده، وهو السلطان فرج عاجزاً عن الدفاع عن دمشق في مواجهة تيمورلنك، وذلك بالرغم من نجاح برقوق قبيل وفاته في حشد التحالفات الإقليمية اللازمة مع العثمانيين وغيرهم ضد تيمورلنك.

لم تستمر السلالة البرقوقية طويلا مثل السلالة القلاوونية، وتلتها مدة من النزاعات بين الأمراء واشترك فيها الخليفة العباسي، إلى أن وصل للحكم أمير قاسٍ اسمه سيف الدين برسباي سنة ٨٢٥ هـ/ ١٤٢٢م، وبقي في الحكم لحوالي ست عشرة سنة، حيث قام بغزو قبرص والانتقام من حملتهم الشنيعة على الاسكندرية، ثم خلفه السلطان جقمق سنة ٨٤٢ هـ إلى ٨٥٧ هـ/ ١٤٣٨م – ١٤٥٣م، الذي تحسنت في عهده العلاقة مع الدولة التيمورية، وكان متديناً ومنع الخمور والمعاصي، ثم كان عهد السلطان قايتباي ٨٧٢هـ /١٤٦٨م الذي بقي في سدة الحكم حوالي ثلاثين سنة حتى وفاته

سنة ٩٠١ هـ / ١٤٩٦م، وقد كان متقشفاً على عكس عادة المماليك، وكان أيضاً كثير القراءة، فضلا عن شجاعته وفروسيته، وكان من أهم أعماله بناء قلعة الإسكندرية. (محمود د.ت : ٣٨٥)

العلاقات مع العثمانيين والصفويين

يفترض نظرياً أن تتحكم الأسس العقائدية كثيراً في العلاقات بين الدول، فمن الممكن تصور أن تكون دولة المماليك صديقة للدولة العثمانية؛ لأن كلاً منهما على المذهب السني، ولأن كلا منهما أيضاً يعادي الدولة الصفوية الشيعية المتطرفة التي ظهرت سنة ٩٠٦ هـ /١٥٠١م عقب سقوط دولة المغول في بلاد فارس والدولة التيمورية، إلا أنه وبالرغم من كون هذه الدول إسلامية ومحكومة بشريعة الإسلام، إلا أن المصالح والعلاقات النفعية لها أيضاً أثر كبير في جعلها تتصرف بشكل مشابه لسياسات الدول العربية المعاصرة إلى حد كبير.

فقد رحبت دولة المماليك بداية الأمر بالدولة العثمانية واحتفلت بفتح القسطنطينية سنة ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م لعدة أيام، كما أنها كذلك الأمر توجست من الدولة الصفوية واتخذت موقف منها العداء، إلا أنه عندما بدأت الدولة العثمانية بمشروعها لمحاربة توّغل الدولة الصفوية بعد غزوها للعراق وفرض المذهب الشيعي بشكله المتطرف بطريقة الإكراه، وجدت دولة المماليك في هذا التصرف العثماني – علاوة على فتح القسطنطينية – على أنه بداية لمنافسة ندية معها على قيادة العالم الإسلامي، فبدأت دولة المماليك بمراجعة مواقفها، ورفضت التحالف مع الدولة العثمانية ضد الصفويين، إلا أن هذا الموقف في المقابل لم يصل درجة التحالف الفعلي مع الصفويين.

وبغض النظر عما كان سيحدث لو لم تفعل دولة المماليك ذلك، فقد أدى هذا إلى معاداة دولة المماليك من قبل الدولة العثمانية، مما أدى مع أسباب أخرى إلى قيام الدولة العثمانية بغزو دولة المماليك والقضاء عليها تماماً، بل لكان أخذ العثمانيون لقب الخلافة من العباسيين، وفي الحقيقة فإنه على الأرجح أنه لم تكن هناك طريقة أخرى ناجحة لتتجنب دولة المماليك هذا المصير، فحتى لو تحالف المماليك مع العثمانيين ضد الصفويين، فقد من المرجح أيضاً أن ينتهي بهم الأمر إلى نفس النتيجة، إذ إن جميع الدول الإسلامية كانت تتنافس في طموحها لقيادة العالم الإسلامي منذ نهاية الخلافة الراشدة، لكن لو أن المماليك تحالفوا في الحرب مع العثمانيين ضد الصفويين لكان ذلك لهم أفضل كخاتمة مشرفة لحكمهم من مجرد الوقوف موقف المتفرج، كما قدم المماليك المساعدة للحفصيين بعد الحملة الصليبية القادمة من أوربا لاحتلال تونس من خلال مساعدة بعض الحركات المعارضة لهم نتج عنه تفاوت الوفاق بين المماليك والمغرب الإسلامي الذي أثر سلبا على الدولة المملوكية.(الربيعي ٢٠٢٤: مجلد١٦،عدد١: ٢)

المبحث الثاني

أسباب وظروف الغلاء في الدولة المملوكية

وجاء الغلاء في مصر خلال عصر المماليك يمكن أن يرجع إلى عدة عوامل، ومن بينها:

١. الحروب والصراعات: شهدت مصر خلال تلك المدة صراعات وحروب متكررة؛ مما أدى إلى تدمير البنية الاقتصادية وتقويض الإنتاج الزراعي، وزاد من الضغوط على الأسعار.

٢. قلة الموارد المائية والجفاف: نقص المياه وظروف الجفاف أثرت على القدرة الإنتاجية للأراضي الزراعية، مما أدى إلى نقص في المحاصيل وتدهور الأوضاع الاقتصادية.

٣. زيادة الضرائب والنفقات العسكرية: ارتفاع التكاليف الناتج عن الضرائب والنفقات العسكرية زاد من الضغوط المالية على السكان؛ مما أدى إلى ارتفاع أسعار السلع الأساسية. (علي د.ت : ١٧٥)

٤. تراكم الديون: تأثر المواطنون بتراكم الديون نتيجة للظروف الاقتصادية الصعبة؛ مما زاد من ضعف القدرة الاقتصادية للأفراد.

٥. تفاقم الفقر: شهدت الطبقات الفقيرة تفاقمًا في ظروف المعيشة نتيجة ارتفاع تكاليف الحياة ونقص الفرص الاقتصادية.

هذه العوامل العديدة أدت إلى تعقيد مشكلة الغلاء في عصر المماليك في مصر، فقد تداخلت الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والبيئية لتشكل تحديات كبيرة على حياة السكان.

تأثير الغلاء في مصر خلال العصر المملوكي كان بارزًا على المجتمع والاقتصاد، وقد أدى إلى تغييرات وتحديات متعددة:

١. تأثيره على المجتمع:

– زيادة الفقر: ارتفاع أسعار المواد الغذائية والسلع الأساسية زاد من حدة الفقر بين الطبقات الفقيرة في المجتمع.

– تفاقم الظروف الاجتماعية: الضغوط الاقتصادية المتزايدة أدت إلى تفاقم الظروف الاجتماعية، مما قد يؤدي إلى اندلاع اضطرابات اجتماعية.

٢. تأثير على الاقتصاد:

– تراجع الاستهلاك: ارتفاع الأسعار قلل من قدرة الأفراد على الاستهلاك، مما أثر سلبًا على الطلب الاقتصادي.

– تأثير على الإنتاجية: قد يؤدي التراجع في القدرة الشرائية إلى تقليل الإنتاجية والاستثمار، مما يثبط النمو الاقتصادي.

– تزايد الديون: لمواجهة تكاليف المعيشة المتزايدة، قد يلجأ الأفراد إلى الاقتراض؛ مما يؤدي إلى تراكم الديون.

٣. تأثير على الحكومة:

تحديات في التحكم الاقتصادي: الغلاء يضع تحديات أمام الحكومة في محاولة السيطرة على التضخم والحفاظ على استقرار الاقتصاد.

تدهور مستوى المعيشة: ارتفاع أسعار السلع الأساسية والغذاء أدى إلى تدهور مستوى المعيشة للطبقات الفقيرة، مما زاد من حدة الفقر والضغط الاقتصادي عليهم.

تزايد الاضطرابات الاجتماعية: زاد الغلاء من التوترات الاجتماعية نتيجة لعدم قدرة السكان على تحمل تكاليف الحياة المتزايدة؛ مما قد يؤدي إلى اضطرابات واحتجاجات اجتماعية.

تأثير سلبي على الاقتصاد: الارتفاع الشديد في أسعار السلع يؤدي إلى تراجع قدرة الناس على الاستهلاك والإنفاق؛ مما يؤثر سلبًا على الطلب الاقتصادي ويضعف النمو الاقتصادي.

تفاقم الديون والاقتراض: بسبب الضغوط المالية الزائدة، قد يلجأ الناس إلى الاقتراض بشكل زائد؛ مما يزيد من تراكم الديون الشخصية والاقتصادية.

على مدار سنوات متفرقة في عصر سلاطين المماليك البحرية والجراكسة، مرت مصر بأزمات اقتصادية متفاوتة، إلا أن عصر الناصر فرج بن برقوق تحديداً كان فارقاً في الأزمة، فقد ارتفعت الأسعار وقلّت الموارد، بسبب سوء إدارة الدولة للموارد والحياة الاقتصادية، كما يرجح المقريزي نفسه ويفسر، في عصر وصفه المقريزي بأنه الأكثر شؤماً على بلاد المسلمين، عانى الاقتصاد في مصر من أزمة اقتصادية كانت مظاهرها انقلابات متتالية في السلطة وفساد عميق داخل الدولة كان ظاهراً لكل الأطراف التي تتنازع السلطة حينها. (العريني ١٩٦٧: ٣٩)

كانت مظاهر الأزمة تتبين من خلال كتابات المؤرخين المختلفة، وعباراتهم التي استعملوها بصفة مشتركة مثل "تزايد الغلاء في كل ما يُباع" "ارتفعت أسعار عامة المبيعات" "الأسعار ارتفعت ارتفاعاً لم يعهد مثله بمصر" "ارتفعت الأسعار حتى بلغت أضعاف قيمتها المعتبرة".

والجدير بالذكر تعرض العديد من الفلاحين في مصر للعديد من الكوارث الطبيعية التي أدت الى تدمير أراضيهم ومحاصيلهم سواء في مصر أو الشام أو الأقاليم التابعة للدولة التي أدت إلى إلحاق الأضرار الجسيمة بالجانب الأقتصادي بشكل عام فضلا عن الخسائر المادية الكبيرة التي لحقت بالفلاحين وعوائلهم وبالتالي أدت الى ارتفاع أسعار الغلال على سنوات متتابعة.(ابن الفرات ١٩٣٩: ج٩ / ص٧-٨)

تفرقت كل تلك العبارات بشكل متتابع على مصادر التاريخ المملوكي ومؤرخيه، كابن تغري بردي والمقريزي والصيرفي وغيرهم من المؤرخين، ليعبروا من خلالها عن فساد العملة وضعف قيمتها وما ترتب عليه من زيادة الغلاء وشح السلع وندرتها. حتى أنه يمكن بشكل بسيط رؤية تأزم الدولة في مسألة التضخم من خلال المثال الذي وضحه المقريزي. إن من كان يشتري سلعة بدينار لم يعد يقدر على شرائها إلا بدينار وزيادة أو دينارين.

وكانت الغلال تحت أيدي أهل الدولة وغيرهم كثيرة جداً لأمرين: أحدهما احتكار الدولة الأقوات ومنع الناس من الوصول إليها إلا بما أحبوا من الأثمان، والثاني زكاء الغلال. فلأجل هذا وغيره، تفاقم الأمر وجلّ الخطب وعظم الرزء وعمّت البلية وطمّت، حتى مات من أهل الإقليم بالجوع والبرد ما ينيف عن نصف الناس. وبلغت أثمانها إلى حد نستحي من ذكره. وسبب ذلك كله ٣ أشياء لا رابع لها: الأول وهو أصل الفساد، ولاية الخطط السلطانية والمناصب الدينية بالرشوة كالوزارة والقضاء ونيابة الإقليم وولاية الحسبة، وسائر الأعمال، بحيث لا يمكن التوصل إلى شيء منها إلا بالمال الجزيل. فتخطى لأجل ذلك كل جاهل ومفسد وظالم وباغ إلى ما لم يكن يؤمله من الأعمال الجليلة والولايات العظيمة، لتوصله بأحد حواشي السلطان ووعده بمال للسلطان ما يريد من الأعمال".

إن تلك الأزمات تسببت في انخفاض القوة الشرائية للدنانير المصرية، وأخذ الناس يفضلون الدنانير المشخصة والعملات الأجنبية. إذ لم تكن هناك ثقة في الدنانير المملوكية التي كان يشوبها خليط آخر غير مادتها الأصلية الذي تسبب في انخفاض قوتها الشرائية المعتادة.

تزايد الغلاء حتى تجاوز الحد، وجعل الغني فقيراً" كانت تلك الجملة المعبرة عما آل إليه حال الناس لابن تغري بردي في كتابه النجوم الزاهرة. طالت أزمة التضخم التي حدثت جميع الطبقات. حيث أثرت على التجار الذين أفلسوا والمزارعين والفلاحين الذين ماتوا من الجوع فضلاً عن عامة الناس في الحرف الذين انقلب حالهم من الغنى إلى الفقر، أو من كونهم ميسوري الحال إلى نزلوهم طبقات أدنى في السلم الاجتماعي. (العريني ٢٠٠٢: ٥٨)

على مستوى السلطة، فلقد كانت الأمور مضطربة إلى حد كبير، كان الناصر فرج بن برقوق يحاول بقدر الإمكان أن يصلح الأمور السياسية والاقتصادية المتأزمة في البلاد، يحاول أن يستميل الأمراء بالأموال والمعونات المختلفة، إلا أن الأمور بسبب الاضطرابات الاقتصادية انقلبت عليه. حتى إن الأمراء في الشام ثاروا وتآمروا عليهم واجتمعوا على عزله والانقلاب عليه. جاء المؤيد شيخ سلطان المماليك لاحقاً ومعه عدد من الأمراء ليقبضوا على السلطان الناصر فرج بن برقوق ويلقوا به في السجن بالإسكندرية ويحملوه ما آلت إليه البلاد من مفاسد عظيمة ومخاطر جسيمة. تولى مكانه

الخليفة العباسي المستعين بالله أبو الفضل، وكان الخليفة الذي تولى السلطة الشرعية والشرفية في ذلك الوقت، وهو الخليفة العباسي الوحيد الذي تولى السلطة في مصر منذ أول خليفة عباسي أتى القاهرة في عصر بيبرس البندقداري.

لم تستقر الأمور في الدولة حتى زمن السلطان برسباي، فقد استمر سوء الأوضاع الاقتصادية مروراً بكل السلاطين الذين تولوا من بعده، سواء كان المؤيد شيخ أو السلطان المظفر شهاب الدين أحمد بن المؤيد شيخ أو السلطان ططر أو ابنه، كان العامل المشترك فيهم جميعاً كساد الاقتصاد وفساد العملة وتضخمها، إلى أن جاء السلطان برسباي، الذي عالج الأمر بإصلاحات اقتصادية وأعاد الدينار المملوكي إلى ما كان عليه بقيمة حقيقية غير مزيفة ، فقد كان للفساد الإداري والسياسي وكذلك القضائي أثره في تدهور الوضع الاقصادي في العصر المملوكي في مصر.(صاحب ٢٠٢١: المجلد ١٣ ،عدد ٥:٥)

المبحث الثالث

سقوط دولة المماليك

وقعت بين المماليك والعثمانيين عدة صراعات على الحدود بداية الأمر، إلا أنها انتهت بمعاهدة سلام سنة ٨٩٦هـ/ ١٤٩١م، ثم لما ظهر الصفويون على الساحة عاد التوتر والتنافس من جديد بين العثمانيين والمماليك، وبعد انتصار العثمانيين على الصفويين في معركة جالديران سنة ٩٢٠ هـ/ ١٥١٤م كانت هذه مفاجأة غير سارة للمماليك، فلم يحتفل السُلطان قانصوه الغوري بانتصار العثمانيين كما يفترض أن يحدث، وهذا الموقف فيه ضعف لإدراك للخطر الذي يشلكه الصفويون لو انتصروا، ليس فقط على دولة المماليك ولكن على مجمل بلاد المسلمين أيضاً، فقد رفض المماليك عروض العثمانيين للتحالف معهم، مما عزز الاعتقاد لدى العثمانيين بأن المماليك أعداء.

وهكذا رأى السلطان العثماني سليم الأول الذي حكم من سنة ٩١٨ هـ إلى ٩٢٦ هـ/ ١٥١٢م – ١٥٢٠م أن من الأفضل أن يقوم بتوحيد البلاد التي يحكمها المماليك مع دولته لزيادة قوتها في مواجهة الصفويين، كما أنه استغل سأم الشعوب العربية من حكم المماليك الديكتاتوري، فبدأ السلطان سليم بضم إمارة ذي القدر التركمانية في الأناضول، وهو الأمر الذي عده السلطان المملوكي قانصوه الغوري بمثابة إعلان حرب، فقرر التعبئة العامة، ولكن كانت مشاعر غالبية الجيش والشعب متعاطفة كثيراً مع العثمانيين؛ مما دفع المماليك إلى محاولة التحالف مع الصفويين، ثم التقوا بجيش العثمانيين في معركة مرج دابق سنة ٩٢٢ هـ/ ١٥١٦م التي هُزم فيها المماليك هزيمة كبرى، وبدأت مناطق الشام تنضم تباعاً للعثمانيين.(العبادي ١٩٩٢ :٥٨٨)

كان وضع أمراء المماليك في غاية الانحطاط والضعف في مصر، وقد سببت لهم أخبار الهزيمة مزيداً من الاضطراب، فأضاعوا الكثير من الوقت بانتظار عودة الأمراء من الشام، ثم حاول المماليك في الوقت بدل الضائع اختيار طومان باي سلطاناً جديداً، إلا أنه هُزم أيضاً في جنوب الشام، ثم هُزم المماليك الهزيمة الكبرى في معركة الريدانية في مصر سنة ٩٢٣ هـ/١٥١٧م، وعلى الرغم من استيلاء العثمانيين على القاهرة من دون مقاومة، فقد تمكن طومان باي من استعادتها لساعات قليلة حتى منتصف الليل إلى أن تم القبض عليه أخيراً بعد فشل المفاوضات مع العثمانيين بسبب غدر المماليك بالوفد التركي المفاوض.

ويمكن الاستنتاج بأن استبداد سلاطين المماليك وهيمنتهم على الأموال العامة وتصرفهم بها وتبذيرها على خواصهم كانت من سلبيات الأمور التي دفعتهم غالبا الى فرض الضرائب الباهضة ومصادرة الأموال و فسح المجال واسعا لكبار تجار الدولة والطامعين للتلاعب بالاموال العامة والسلع والمواد الغذائية والتضييق على الناس، وهذا كله عاد بنتائج سلبية على الدولة والسلاطين؛ مما أدى الى تذبذب الوضع الاقتصادي في الدولة بشكل عام .(طقوش ، ١٩٩٧،ص٥٧١)

ونلاحظ أثناء سلطنة الناصر حسن (٧٥٥هـ / ١٣٥٤م) قام السلطان بإصدار أمر لجباية ضرائب جديدة ومكوس على التجار والناس لغرض الاستحصال الأموال الطائلة بأسرع وقت لتوفير أيرادات اضافية للدولة وهذا ما انعكس سلبا على عموم المجتمع المملوكي الذي اصابته المظالم حتى قاموا بالدعاء على السلطان والتحريض على خلعه .(المقريزي ،١٩٩٧م، ج٤/ص١١٧)

وقد أشار المقريزي إلى "أيام السلطان ناصر حسن قائلاً :- وكانت أيامه شديدة كثرت فيها المغارم بالنواحي"(ج٤/ص١٣٨)

ونتيجة لسياسة المماليك التي اتسمت بالفوضى والاضطراب منذ تأسيسها ، ظهرت طبقة فقيرة شبه معدومة في المجتمع عانت ما عانته من الفقر والجوع نتيجة سوء الأوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في الدولة نذكر منهم فئة معينة وهم طلبة العلم الذين كانوا معضمهم من الفقراء المعدمين اذ كانوا يجتمعون في بعض الأحيان لتناول وليمة خاصة بهم، كان يعدها لهم بعض الامراء والعلماء كالأمير حسام الدين لاجين أحد كبار الأمراء في دمشق؛ إذ كان هذا الأمير محباً للفقراء باراً بهم وكان يقوم بجمع الفقراء والصوفية بين الحين والآخر لسماع الحديث الشريف كما صرف عليهم الأموال التي كانوا بحاجة إليها.

ونذكر أيضا الشيخ قطب الدين محمد بن أحمد إذ كان لا يختلف عن سابقه في حبه ورعايته للفقراء والمساكين وأبناء السبيل من الوافدين إلى القاهرة إذ كان شغوفا بعمل الولائم لهولاء الفقراء

والمحتاجين الذين كانوا بحاجة إلى الطعام والشراب والمال نتيجة سوء الأحوال الاقتصادية والمعيشية في الدولة.

ونتيجة لارتفاع أسعار المواد الغذائية والكمالية في مصر كان الناس الفقراء بحاجة ليس للطعام فقط بل للملبس، فكان الشيخ علاء الدين بن البخاري يوزع آلاف القطع من الأقمشة على طلبته الملازمين له، فضلا عن قيامه لعمل وليمة كلفته ٦٠ دينار آنذاك.(ضاحي ، ٢٠١٥، ص١٠٩-١١٠)

وهكذا نلاحظ أن ما شهده العصر المملوكي من صراعات على السلطة وحروب خارجية واضطرابات داخلية شكلت أهم سمات ذلك العصر؛ مما أثر ذلك سلباً على واقع الحياة الاقتصادية والاجتماعية للسكان وكان الغلاء أحد أهم الظواهر المؤثرة على الناس ، ولقد كان الغلاء ظاهرة معقدة نابعة من عدة عوامل. شهدت المجتمعات الريفية انخراطًا في الحروب والصراعات؛ مما أدى إلى تراجع الإنتاج الزراعي وارتفاع أسعار المواد الغذائية. كان النقص في الموارد المائية والجفاف عوامل رئيسة في هذا السياق.

الخاتمة:

وفي ختام مدة العصر المملوكي في مصر، يظهر الغلاء كظاهرة معقدة أثرت على جميع جوانب المجتمع والاقتصاد. استمرار تزايد أسعار المواد الغذائية والسلع الأساسية خلال تلك الحقبة أثر سلبًا على حياة السكان وسط جملة من التحديات.

في هذا السياق، تأثير الغلاء لم يقتصر على الجوانب الاقتصادية فحسب، بل تجاوز ذلك ليمتد إلى الأبعاد الاجتماعية والسياسية. زادت حدة الفقر، وتفاقمت الظروف المعيشية؛ مما أدى إلى تزايد التوترات الاجتماعية والانزعاج في البيئة اليومية للناس.

من الناحية الاقتصادية، شهدت الحكومة تحديات كبيرة في إدارة الأوضاع المالية والمحافظة على استقرار الاقتصاد، نتيجة الضغوط المالية الناجمة عن زيادة التكاليف وتقلبات الأسعار.

كما تسببت قلة الموارد المائية والجفاف في نقص الإنتاج الزراعي؛ مما أدى إلى ارتفاع أسعار المواد الغذائية. كان الغلاء يؤثر بشكل كبير على حياة السكان، إذ زادت الأسعار بشكل مفرط؛ مما أدى إلى تراجع قدرتهم على تلبية احتياجاتهم الأساسية وتفشت المجاعة.

ونتيجة لتفشي ظاهرة الغلاء وارتفاع اسعار السلع في تلك الحقبة نلاحظ ألاف الجياع التي كانت تنتشر في شوارع القاهرة بانتظار حصولها على الطعام أو المال التي غالبا ما تقوم بنهبه بعد الفراغ

من الولائم التي كانت تقدم لهم فكان يسمح للفقراء والجياع بحمل ما يتبقى من الطعام معهم فكانت هناك هوة شاسعة في المعيشة بين الحكام والمحكومين نتيجة الغلاء.

في نهاية العصر المملوكي، يبقى الغلاء كظاهرة تاريخية تشكلت نتيجة لتداخل عوامل متعددة. يعكس هذا التحدي التاريخي التعقيدات التي مر بها المجتمع المصري في ذلك الوقت، وكيف أثرت هذه الظروف على حياة الناس وتطور الاقتصاد في تلك الحقبة الزمنية.

قائمة المراجع والمصادر:

ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم،(ت ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م)
تاريخ ابن الفرات ، تحقيق د. قسطنطين زريق ، المطبعة الامريكانية ، (بيروت ١٩٣٩م).
المقريزي،تقي الدين احمد بن علي بن عبد القادر ابو العباس الحسيني العبيدي،(ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م)
السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطى ،ط١،دار الكتب العلمية (بيروت ١٩٩٧).
طقوش، محمد سهيل
تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ط١، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع،(بيروت ١٩٩٧م).
جون ألن :"تاريخ مصر في العصور الوسطى: العصر الأيوبي والمملوكي" ،الطبعة: الطبعة الأولى، دار النشر: دار الكتب العلمية ،(د.ت).
ضاحي، فاضل جابر: الولائم في دولة المماليك، دراسة في التاريخ السياسي والاجتماعي، الطبعة الاولى، دار النشر: تموز، ٢٠١٥.
عمارة، محمد: "المجتمع المصري في العصر المملوكي: الحياة اليومية والاقتصاد والثقافة" ،الطبعة: الطبعة الثالثة ، دار النشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٢٣.
عبد الله، علي محمد: "التاريخ الاقتصادي للدولة المملوكية في مصر، الطبعة: الطبعة الأولى ، دار النشر: المكتبة العصرية، (د.ت).
عبد الرحمن، زكريا: "تاريخ الاقتصاد المصري في العصور الوسطى"، الطبعة: الطبعة الثانية ، دار النشر: مكتبة الثقافة الدينية،٢٠٢٣.
طه، مصطفى السيد "اقتصاد مصر في العصر المملوكي" ، الطبعة: الطبعة الأولى ، دار النشر: دار الكتب العلمية ، ٢٠١٩.
فاطمة محمود: "الغلاء وتأثيره على الحياة اليومية في مصر خلال العصر المملوكي" ، الطبعة: الطبعة الثانية ، دار النشر: مكتبة الأنجلو المصرية، (د.ت).
نور علي: "الزراعة والاقتصاد في مصر خلال العصر المملوكي" ، الطبعة: الطبعة الثالثة ، دار النشر: دار المعارف ، (د. ت).
العبادي، د. أحمد مختار ، في التاريخ الأيوبية والمملوكي ،١٩٩٢.

العريني، د.السيد الباز ، المماليك ، ١٩٦٧.
تحقيق إيمان عمر شكري ، السلطان برقوق مؤسس دولة المماليك والجراكسة ،٢٠٠٢.
''مجلة لارك''
الربيعي، هيثم عودة كاظم : مجلد ١٦ عدد١/٢٠٢٤. (إذ قام المماليك بمساعدة الحفصيين لاسيما بعد الحملة الصليبية الاوربية بقيادة لويس التاسع على تونس، ومن جانب آخر تدخلهم في شأنهم الداخلي إسوةً بالحفصيين من خلال مساعدة بعض الحركات السياسية المعارضة لهم، مما يذكر طبيعة العلاقات التي سادت بين المماليك والمغرب الاسلامي متفاوتة بين الوفاق والنزاع)
https://doi.org/10.31185/lark.Vol1.Iss52.3318
صاحب، احمد عليوي : مجلد ١٣ عدد ٥ /٢٠٢١. (في ابراز واظهار نزاهة القضاة في عصر طغى عليه الفساد الاداري والسياسي والقضائي)
https://doi.org/10.31185/lark.Vol4.Iss43.2056

List of sources and references

• Ibn al-Furat, Nasir al-Din Muhammad ibn Abd al-Rahim, (d. 807 AH / 1404 AD)
- History of Ibn al-Furat, investigated by Dr. Constantine Zureik, American Press, (Beirut, 1939).
• Al-Maqrizi, Taqi al-Din Ahmed ibn Ali ibn Abd al-Qadir Abu al-Abbas al-Husayni al-Obaidi (d. 845 AH/1441 AD)
Behavior to Know the States of Kings, investigated by Muhammad Abdul Qadir Atti, 1st Edition, Dar Al-Kutub Al-Ilmia (Beirut 1997).
• Taqqosh, Muhammad Suhail
History of the Mamluks in Egypt and the Levant, 1st Edition, Dar Al-Nafais for Printing, Publishing and Distribution, (Beirut 1997).
• John W.: "The History of Egypt in the Middle Ages: The Ayyubid and Mamluk Era," Edition: First Edition, Publishing House: Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah, (No date).
•dahi,fadel jaber: banquets in mamluk state, Edition: First Edition, Publishing House: tamoz ,2015.
• Amara, M.: "Egyptian Society in the Mamluk Era: Daily Life and Perfection," Edition: Third Edition, Publishing House: Arab Foundation for Studies and Publishing, 2023.
• Abdullah, A. Muhammad: "The Mamluk Economic History in Egypt, Edition: First Edition, Publishing House: Al-Asriya library, (No date).

• Abdel Rahman ,Z.: "The History of the Egyptian Economy in the Middle Ages," Edition: Second Edition, Publishing House: Modern Culture Library, 2023.
• Al-Sayyid Taha, M., "Egypt's Economy in the Mamluk Era," Edition: First Scientific Edition, Publishing House: Dar Al-Kutub alalmea, 2019.
• Fatima M.: "Daily High Prices in Egypt During the Mamluk Era," Edition: Second Edition, Publishing House: Anglo Bookstore, (No date).
• Nour A.: "Macroeconomic Cultivation in Egypt during the Mamluk Era," Edition: Third Medicine, Publishing House: Dar Al-Maaref, (No date).
• Al-Abadi, A. Mukhtar, in Ayyubid and Mamluk history, 1992.
• Al-Arini,. Al-S. Al-Baz, Al mamalek, 1967.
• Verified by Iman Omar Shukri, founder of the Sultan Barquq Foundation, Almamalek and Al-Jaksa, 2002.
• "Lark Magazine"
- Al-Rubaie‹ Haitham Odeh:file 16, No. 1 /2024.
https://doi.org/10.31185/lark.Vol1.Iss52.3318
- Dr. saheb‹ Ahmed Aliwi,: file13, No. 5/2021.
https://doi.org/10.31185/lark.Vol4.Iss43.2056